التجليات الاجتماعية في المشهد اللغوي العربي من خلال "مَجْمَع الأمثال" للميداني

د. عيسى عودة برهومة *

الملخص

أبحث في هذه الدراسة العلاقة بين اللغة والمجتمع، اللغة باعتبارها وسيلة لتحقيق التواصل البشري الذي سعى الإنسان إليه. والمجتمع الذي ولدت فيه تلك اللغة ونشأت في أحضانه.

ولما كانت اللغة من نتاج الاحتكاك الاجتماعي، فإنها تتجاوز وظيفة التفكير، لأداء وظائف اجتماعية تسهم في توطيد العلاقات في أفراد المجتمع المعين، وذلك أنها تفرض نفسها على جميع الأفراد في ذاك المجتمع.

لذلك فإن هذه الدراسة وضعت باعتبارها هذه العلاقة الأزلية بين لغة المجتمع، فراحت تكشف عن طبيعة هذه العلاقة، وتبرز وشائجها المترابطة. إذ إن السلوك اللغوي شريك السلوك الاجتماعي، فهما في حالة حراك وتفاعل دائمين، ولا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر في ظل هذه العلاقة.

إن هذه العلاقة ذات الوشائج المتلاحمة قديمة، أدرك كنهها القدماء على نحو ما أدركها المحدثون، فراح بعضهم يشير إلى هذه العلاقة إشارة عابرة، في الوقت الذي فصل فيها الآخرين، وكان لا بد لنا من وقفة نلتمس بعض وجهات النظر في هذه العلاقة.

ثم بحثت الدراسة أهمية كتاب " مَجْمَع الأمثال " موضوع هذه الدراسة، وحاولت بعد ذلك استجلاء المشهد اللغوي الاجتماعي في ظل العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع في هذا الكتاب الذي يجمع بين آلاف الأمثال التي تصور الحياة العربية بتحققاتها المتنوعة.

ABSTRACT

The importance of linguistics and social scene in the field proverbs collection:

Within this specific study, I've searched the ultimate relation between Language and Society. Language is the important device to reach the continuous social communications, which the mankind worked very hard to obtain its value.

This study also contains social history where language been born and furnished.

---

* الجامعة الهاشمية – عمان – الأردن.

Due to the fact that it is the result of social contacts, language has exceeded the mere intention while performing social duties concerning the strengthen of relations, because language has imposed itself perfectly in every aspect of life.

Therefore, this study put in its consideration the unlimited relation between Language and Society depending on the fact that the lingual behavior is the solid partner of social one, both are still deal with a non stop motion and activity, and no separation maybe happen between the two. This relation had an old solid connection which known in the past as well as present time. We should refer to the various points of view concerning this relation between language and society. Meanwhile, I seek the importance of the book "proverbs' collection" which represents the essence point of my study. I tried to reveal the essential aim of the lingual scene in the society passed on that relation which stands between Language and Society shown in that book which contains thousands of proverbs that give a great idea about Arab daily life.

At the conclusion of my study, I've numerated the very important results. The more important among those results was the great relation between language and society. Language was and stills the smooth way for people to express their feelings, their ideas about universe and all of the other life aspects.

المقدمة :

العلاقة بين اللغة والمجتمع علاقة أزلية، زاملت وجود الإنسان الأول الذي طُبِع على حب الاجتماع والتفاعل، فرنا إلى وسيلة لتحقيق الاجتماع الذي يطمح إليه، فكانت اللغة ضالته التي يبحث عنها.

إن التصنيفات الاجتماعية وثيقة العرى باللغة، فالمتحدث يحدِّد نفسه في أحياز متعددة تبعا للمشهد الاجتماعي، ويحدِّد كذلك الفعل الكلامي في آفاق متعددة الإمداء وفقا لجوانب حياته الاجتماعية، فكل بعد من هذه الأطياف يتحدد بالنظر إلى مفاهيم بأعيانها لمتحدث نموذجي في موقف نموذجي.

إنَّ هذه العلاقة أخذت مكانتها من خلال وظيفة اللغة في تحقيق التواصل والترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وبالتالي خرجت عن وظيفتها المعتادة في نقل الأفكار وتواصلها، وهي الوظيفة التي رأى فيها بعضهم وظيفة رجال الفلسفة والفكر، وغدا القول بهذه الوظيفة - أي أداء الأفكار ونقلها - غير سديد وينافي الحقيقة.

وأصبح للغة قوة سحرية -بفعل هذه الوظيفة - بوصفها وسيلة للترابط والتعاون الاجتماعيين بين أفراد المجتمع، وتخطي تأثيرها إلى سلوك الأفراد وأحاسيسهم وطريقة تفكيرهم؛ لأنَّ اللغة حصيلة الموقف الاجتماعي.

ولا يتوقف دور اللغة عند هذا التفاعل والتواصل، وإنما تتخطَّى هذا الدور لتقوم بدور القانون الذي يميز بين طبقات المجتمع المختلفة، وذلك بالنظر إلى المكانة الاجتماعية، والمستوى المعيشي لتلك الطبقات، ويصبح الأصل الإقليمي والاجتماعي والعرقي بينا واضحا نتيجة هذه الدراسات النوعية للغة؛ بهذا تكون بالضرورة للغة وظيفة اجتماعية، كغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى التي طبع عليها الأفراد في المجتمع. وكما تصدّى الباحثون المحدثون لدراسة هذه الوظيفة، لم يفت القدماء التنبيه على ما يمكن أن تقوم به اللغة في المجتمع من كشف عن الفروق الفردية والجمعية، وارتباطها بالثقافة والبيئة والنوع.

ولما كان الفرد بمفرده غير قادر على تحقيق الاجتماع الذي جُبِل عليه، سعى للبحث عن وسيلة يحقق فيها الاجتماع الإنساني، ليقيم مسيرة حياته ويمنحها السيرورة والبقاء، فتتطلع إلى إقامة علاقات مع الآخرين، وبذل جهده في البحث عن وسيلة تضمن له التفاعل وتحقِّق رغبته في التواصل البشري، واهتدى إلى اللغة التي رأى فيها الوسيلة المثلى لتحقيق هذه العلاقة.

وتعددت الأنظار في تفسير نشأة اللغة، فذهب بعضهم إلى أنّ اللغة نشأت حين اجتمع الإنسان مع غيره، ولم تنشأ عنه وهو منعزل منفرد عن غيره من البشر(أنيس ،1976، ص26) ؛ أي أنَّ اللغة في نشأتها الأولى عائدة إلى حاجات فردية وجماعية، نشأت في إطار العلاقات الإنسانية التي اصطلح عليها المجتمع، وتكوّنت في أحضانه يوم أحسّ الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم.

اللغة بمعناها الأوفى تنتج من الاحتكاك الاجتماعي، الذي أهَّلَها لأن تكون واحدة من أقوى العُرى التي تربط الجماعات البشرية، لذا دانت بنشوئها إلى وجود احتشاد اجتماعي فهي وليدة حاجات فردية وجماعية، نشأت في ظل الجماعة الإنسانية التي رأت فيها سبيلاً ومنطلقاً لتحقيق غاية التواصل الإنساني؛ لأنّ الإنسان مدني بطبعه - وفقاً لنظرتهم - وبالتالي فإن اللغة " نتاج العقل الجماعي، وليست من صنع فرد أو جماعة معينة بل هي من صنع الاجتماع الإنساني، إذ إن اللغة بما تحويه من رموز تكتسب دلالتها من المعنى الذي يتعارف عليه المجتمع أو المجتمع الإنساني"(عفيفي،1987، ص21). إذن، فاللغة في نشأتها مدينة للاتفاق والمواضعة البشرية التي

تنشأ فيها، فهي نسق من الرموز ذات دلالة مُكْتَسبة في إطار الجماعة اللغوية، وهي ظاهرة اجتماعية من صنع الاجتماع الإنساني.

وتتخطّى اللغة وظيفة التفكير المجرَّد، إذ رأى أولمان " أنّه من المستحيل أن نصل إلى فهم تام لطبيعة اللغة إذا حصرنا اهتمامنا في الوظيفة العقلية للغة بوصفها وسيلة لنقل الأفكار وتوصيلها إلى الغير، فهذا قول غير سديد، بل هو ينافي الحقيقة؛ لأنّ استعمال اللغة للتعبير عن الأفكار ونقلها وتوصيلها إنما ينطبق على رجال الفكر والفلسفة، وأمثالهم في اللحظات التي يكونون فيها مشغولين بأعمالهم العملية التي تحتاج إلى تفكير عميق"(أولمان ،1962، ص21) فأولمان يرى أنَّ التفكير والتعبير عن الأفكار من خلال اللغة إنما هو من عمل المفكرين والفلاسفة الذين يقع على عاتقهم نقل الأفكار وتوصيلها إلى الغير في أثناء انشغالهم في أعمالهم العلمية التي تفرض عليهم التفكير المحض، ولذا يتوجب عليهم استعمال اللغة بوصفها وسيلة للتعبير والتفكير والتواصل.

من هنا جاء التركيز على دور الكلمة في التعبير، إذ إن للكلمة قوتها الخاصة في أداء الأعمال وإنجازها، فإذا فقدت فعلها في الحياة الاجتماعية أمست عاجزة عن إنجاز الأعمال الإنسانية، وتأديته على النحو المطلوب.

واللغة تقوم إلى جانب وظيفتها الثانوية - التعبير عن الأفكار - بوظيفة أكثر شمولاً لكونها وسيلة للتعاون والترابط الاجتماعي، فللغة قوة سحرية في مجتمعها التي نمت في أحضانه، وحفظت كيانه ونظامه،" فهي الذاكرة الجماعية حيث يودع الشعب الخبرة الواجب نقلها إلى الأجيال المقبلة" (غارمادي ،1990ص28)

كما أنَّ اللغة في أصلها العام ترجع إلى الطبيعة الاجتماعية للإنسان،" فالبناءات الاجتماعية وحيوية العلاقات بين الأفراد والجماعات في المجتمع هي التي تتحكم في وجود وظيفة اللغة والتغيرات الحادثة عليها، إذ يمتد تأثير اللغة إلى الثقافة، والوشائج بين أفراد المجتمع في الحياة" (لوكمان، 1987،ص12 -14).

وهذه الوظيفة التي تؤديها اللغة في إقامة العلاقات والروابط بين الأفراد، وتطوير هذه العلاقات الاجتماعية أطلق عليها "مالينوفسكي" التواصل الودي بين الناس Phatic communion ، فهي تمنح الفرد شعوراً بالانتماء لمجتمع المتحدثين بها ، كما تعين الأفراد على التكيف النفسي والتوافق الاجتماعي مع الجماعة والمجتمع وغيره من الأفراد، فرأى مالينوفسكي أن اللغة ذات وظيفة اجتماعية، وليست إحدى وسائل توصيل الأفكار والانفعالات أو التعبير عنها

حَسْب، فمثل هذا لا يعدو أن يكون وظيفة واحدة من الوظائف العديدة للغة. (Malinowski,"ed".1930,P.307-315)

واللغة تصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية، إذ كلما ازداد توغلاً في انتمائه للمجتمع اللغوي، شَغَلت اللغة دوراً متزيداً، لا في حياته الاجتماعية فحسب، بل في سلوكه، وإحساسه، وتفكيره الشخصي. لذا يتعين دراسة اللغة ونواميسها في إطار العلاقة الوثيقة القائمة بينها وبين تاريخ المجتمع؛ لأنَّ اللغة حصيلة اجتماعية، ونتاجٌ للتاريخ الاجتماعي.

إن العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع علاقة مصيرية، كل منها يؤثِّر في الآخر ويتأثّر به، فاللغة مرهونة في وجودها بالمجتمع الذي نشأت فيه، فهو يتحكم في مصير بقائها أو زوالها.

ويتضمن المعنى الاجتماعي الثقافي Social - culture meaning أو ما يسمى بالمعنى السياقي Contextual meaning محتويات المعنى للكلام أو التعبير ويقصد به مغزى الكلمات ضمن الجملة في موقف أو محيط اجتماعي معين (شريدة ، 1974،ص318) .

فهذا المعنى يُقْتَبس من الكلام المستعمل في الحياة اليومية، الذي يفسر في مجتمع إنساني معين، كما أنَّ معنى كهذا هو أكثر عرضة إلى التغيير والتبديل عبر التاريخ من أي معنى آخر في اللغة.

وتبعا لهذا فإن المعنى الاجتماعي الثقافي يتأثر بالمحيط من حوله، فيختلف قليلاً أو كثيراً من محيط إلى آخر، ومن موقف إلى آخر، إذ يغدو ذا أهمية في فهم المعنى الكامل وإدراكه للكلمة أو التعبير؛ لأنَّ المعنى الكلي لا يتوقف عند المعنى اللغوي حَسْب، إنما يُوغل في المعنى الاجتماعي الثقافي.

وبما أنَّ اللغة نتاج طبيعي للنشاط الإنساني؛ نظراً لتطابق مكان الإنسان على حاجاته الاجتماعية، فإنها تُعَدّ الصورة المثالية التي تفرض نفسها على الأفراد جميعهم في مجموعة واحدة.

وتعمل اللغة بوصفها علامة طبيعية يمكن بوساطتها التمييز بين جماعات المتكلمين، كذلك تقوم بدور بارز يمكن التمييز من خلاله بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، كما يمكن تحديد المكانة الاجتماعية التي يشغلها الأفراد بالنظر إلى انتماءاتهم الطبقية؛ لأنَّ " اللغة عنصر هام جداً لتمييز شريحة عن أخرى، كما أنَّ الانتقال من مظهر من اللغة خاص بشريحة معينة إلى مظهر آخر يمكن أن يحدث تدريجيا مع تطور الفرد ، ويمكن أن يحصل تشبيها بشريحة أو طبقة اجتماعية تالية، فكثيراً ما يولِّد الهُزْء والسخرية، ولكنه يحدث كثيراً في المناسبات أو المقامات

المختلفة لتصبح اللغة المستعملة مناسبة لذلك المقام (نايف خرما، 1978، 230، وأبو زيد، ص147 -150)

وتتغير الأساليب اللغوية التي يستخدمها الفرد بتغير الموضوع من جهة والمشاركين في الحديث أو المستمعين له من جهة أخرى، وهذا ما نلحظه من ظاهرة التدريج السنيّ، إذ إنَّ صغار السن يتكلمون بطريقة تختلف عن الطريقة التي يتكلم بها من يكبرهم سنا، مما يجعل لغتهم مغايرة للغة البالغين، وأثبتت الدراسات أن التنوعات اللغوية لدى المتكلمين تعكس أموراً مثل الأصل الإقليمي، أو الاجتماعي، أو العرقي، وقد تعكس النوع أيضاً.

فالسلوك اللغوي والسلوك الاجتماعي في حالة تفاعل دائم، كما أكده ديتمار N. Dittmar (Wardhaugh,1992,p12) ومما يعضد هذه العلاقة بين اللغة والمجتمع، أنَّ لكل مجتمع عاداته وتقاليده الاجتماعية ومعتقداته التي يمارسها من خلال اللغة، مما جعل مالينوفسكي يرى أنَّ اللغة مرآة صادقة تعكس صورة واضحة لما عليه أفراد المجتمع من نظم وتقاليد وعادات واتجاهات ثقافية، فوظيفة اللغة البارزة للعيان وظيفة اجتماعية، إذ تستعمل للتحية بأنواعها ولإظهار التأدب والتلطُّف في المناسبات الاجتماعية المختلفة التي تبرز فيها المركز الاجتماعي للطبقات المختلفة.

إن العلاقة بين اللغة والمجتمع علاقة وطيدة ذات وشائج راسية، تنبه إليها نفر من القدماء، وبان ذلك في مصنفاتهم، ذكر بشر بن المعتمر (ت 210هـ) في صحيفته أنه: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وأقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يُقسِّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"، فهذه العبارة تكشف عن إدراكه وظيفة اللغة في التمييز بين طبقات المجتمع المختلفة، مما يكسب اللغة وظيفة اجتماعية، وأكد الجاحظ (ت255هـ) هذه العلاقة بقوله: ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكل بينها وبين تلك الصناعات" (الجاحظ، 1969، 368/3)

كما أشار إلى تنوع سمات الكلام بتنوع المتكلمين من حيث الثقافات والبيئة والجنس (race) فقال: "وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة، ويكون لفظه متخيَّرا فاخرا، ومعناه شريفا كريما، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي، وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فإنك تعلم مع إعرابه وتخيُّر ألفاظه في مخرج كلامه، أنه خراساني وكذلك إذا كان من كُتّاب الأهواز" (الجاحظ، 1988،1/69)

فاللغة نتاج جمعي، تكمن في جوهرها ظاهرة اجتماعية متشعبة الجوانب، متأثرة مما يدور حولها من علاقات ووشائج تنظم حياة الأفراد في المجتمع، لذا يُستأْنس دراستها وتفسيرها في إطار المجتمع الذي يأخذ دوراً كبيراً في تشكُّلها، وهذا مبلغ العناية للمشتغلين باللّسانيات الاجتماعية.

وقد تيسر لي الاطلاع على كتاب مَجْمَع الأمثال في أثناء بحثي في كتب تراثنا عما يمكن أن يكون انتبه صاحبه لمثل هذا الدور - عفواً أو قصدا - فوجدت في الأمثال العربية التي أودعها الميداني في مَجْمَعه مرآةَ للحراك الاجتماعي والثقافي، إذا إنها تكشف عن الطبائع المُستَكِنَّة في المجتمع، وتشفُّ عن طرائق التفكير، ففي ثناياها تقبع رواسب الحياة في الحِقَب السابقة.

وتقوم هذه الأمثال ببسط المشهد اللغوي الاجتماعي للأمة العربية ، فهي قنطرة ناجعة للتجارب المتوارثة، لما تتسم به من استشفاف لغوي، واختزال معنوي فضلاً على تلك السيرورة والانتشار؛ لذا قيل " أسير من مثل" وَوصفَت الأمثال بأنها "مصابيح الكَلِم".

فالعبارات التي شاعت في الحقبة التي وثّق لها الميداني، تُعاين الواقع الاجتماعي بمختلف مظاهره، لأنّ الأمثال لازمت المواقف الكلامية المتشعبة، ولم تُقل في مناسبة واحدة، لذا ارتأيت دراسة الأمثال - دراسة لغوية اجتماعية - ويعضد هذا الرأي أنَّ الأمثال العربية لم تُدْرَس - فيما انتهيت إليه من بحث ونظر - دراسة لغوية اجتماعية، فكانت هذه المقاربة البَيْنِيّة للكشف عن العُرى الجامعة بين الأمثال والمجتمع، فكان هذه الاستبار المبتدأ وهو المنتهي في كتاب جامع للمخيال الشعبي خطّه الميداني في "مَجْمع الأمثال"، وبذلك وثّقت هذه الأمثال الإيقاع الفردي والجمعي للعرب، وكشفت طرائق التفكير والتعبير، والتواصل مع الآخرين، وتبادل الخبرات، وأنماط السلوك التي تؤلف ثقافة ذلك المجتمع، ورصدت التنظيمات الاجتماعية السائدة، وعلاقات النسب والقرابة، إلى غيرها من مناشط الحياة العديدة، وهذا يؤكد أنَّ اللغة أظهر الوسائل في تأنيس الفرد Socialization، وتكييفه لمطالب مجتمعه، واستيعابه لخصائص أمته، وتمثُّله في سلوكه.فالأمثال حكمة الأمم والشعوب، تبدو فيها نظرتها إلى الحياة،ومذاهبها في الأخلاق الفردية والعلاقات الاجتماعية،كما أنها تكشف عن جوانب شتى من حياتها اليومية(قطامش، 1988، 249 وعابدين ،1989، 85)، وهي سجل حي لنبض المجتمع، فيها يودع خبراته وتصوراته عن الكون والحياة،فتتواتر إلى الأجيال،لما تنطوي عليه من اختزال في اللفظ،وإيضاح للمعنى،وتوسع في الحديث، وقد هجس ابن المقفع بشيء من هذه الأنظار،فقال:"إذا جعل الكلام مثلاً كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين للمعنى، وآنق للسمع،وأوسع لشعوب الحديث"(الأدب الصغير،1986،ص40-41)

والتفت الفارابي لأبعاد المثل الثقافية والدلالية حين عرَّفه:"بأنه ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم،وفاهوا به في السراء والضراء، فاستدروا الممتنع من الدر، وتوصلوا به إلى المطالب القصية وتوخوا به الكُرب المكربة،وهو من أبلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة ،أو غير بالغ المدى في النفاسة" (ديوان الأدب، 1979، المقدمة).

وبلغت الأمثال العربية من الكثرة أنه رصدت حياة العرب بتفاصيلها،فاستبرت أساليب معيشتهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وأحوالهم في حلهم وترحالهم، وعاداتهم، وأخلاقهم،وما مشترك بينهم وبين الشعوب.ينظر ما ذكره Levey.R (Encyclopaedia of Islam.Vol.3.p408.)

فالأمثال تختزن صفوة اللغة المحكية،فمن خلالها نستشف صفات لغة الخطاب عند الأمم بأجلى حالاته، وتحمل معها وشم كل عصر دون تزييف أو تصنُّع (أبو علي،1988،ص102-103).

ولا نغلو إذ قلنا إنَّ كتاب مَجْمَع الأمثال يمثل إدراكا واعياً لهذه الوظيفة الاجتماعية للغة الناتجة عن العلاقة بين اللغة والمجتمع، يمكن من خلاله استجلاء المشهد اللغوي الاجتماعي للمجتمع العربي القديم.

وهو الكتاب الذي يكاد ينعقد اتفاق العلماء والمؤرخين على أنه فريد في نوعه ، وقد وصفه ابن خلكان بأنه: "ولم يُعْمَل مثله في بابه" (ابن خلكان،1،1968/148) وقال عنه القفطي: "إنه من التصانيف الجليلة (القفطي، 1986 ، 157/1)، كما قال ابن العماد الحنبلي - صاحب شذرات الذهب: إنَّ كتاب الأمثال لم يعمل مثله (الحنبلي،1979 58/2) وقال عنه صاحب كشف الظنون: بأنه كتاب حسن وقف الزمخشري عليه فحسده" (حاجي خليفة،1992، 1597/2)

إن هذه العبارات التي تواترها هؤلاء العلماء تكشف عن المكانة التي يحظى بها كتاب مَجْمَع الأمثال للميداني. فهو ينقل لنا صورة الحياة العربية في جوانبها الثقافية والفكرية والأسرية والطبيعية...علاوة على أنه يكشِف عن تفاعل اللغة بالمجتمع وأفراده."فمن المعروف أن الاستعمال اليومي للغة يختلف بعفويته،وعدم تكلفه عن الاستعمال الكائن في المستويات النظرية التجريدية،أو في الأوساط الإعلامية، أو في المستويات الأدبية والفنية، فهذه تقتضي نوعاً من الانقباض النفسي والفيزيولوجي،زيادة على أن اللغة المنطوقة أكثر عفوية "(هادي نهر، 1998، ص143).

الحياة الفكرية العربية في الأمثال

أ - الأدب: يقفنا الميداني على صورة الحياة الفكرية في المجتمع العربي، ولعل إطلالة على الصيغ التركيبية للأمثال تُلْمِع إلى أنّ بعضها يحفل بحلّة إبداعية راقية قد لا تحاكيها نصوص حديثة تعتمد الصنعة الفنية، وإجهاد الذهن وسيلة في نحت الكلمة وتناغم السياق، ومن الشواهد على ذلك:

- دَمْعَة من عوراءَ غنيمة ٌ باردةٌ (الميداني،1987،1/ 474) صورة تلازم البعدين الفني والاجتماعي، فكل شق يشكل معلومة مستقلة : دمعة من عوراء/ غنيمة باردة. والوصل فيها تلقائيا بلا أداة .
- عُقَرَةُ العِلْم النِّسيان (الميداني2/370) تشخيص العلم وتشبيهه بامرأة يوضع في حقويها خرزة تدعى النسيان ، فتصبح عاقرا لا تنجب.
- أنمُّ من الصُّبح (الميداني 3/ 404) استعارة النميمة للصبح.

كما تنطلق الأمثال من واقعة حسية تجريبية ثم يأتي الشيوع ليسقط هذه الواقعة نفسها على أيّ أمرٍ قد لا يمت بأدنى صلة إلى تلك الواقعة، فيكون ذا بعد مجرد، إذا ما قيس بالمنشأ الذي انطلق منه المثل، ومن الأمثال في هذا:

- هذا أمرٌ لا تَبْرُكُ عليه الإبل (الميداني 3/ 479)
- بلغ السَّيل الزُّبى (الميداني 158/1)

يرمزان هذان المثلان إلى الغضب تارة، وأخرى للشر، ومرة للمأساة.

وتظهر الأمثال صلة الأدب الواقعي بحياة العرب؛ أي التصاقه بالواقع والتعبير عن ظواهره وبواطنه، فالأمثال مرآة حياة العرب تحيط بكل جوانب الواقع فيها، تعبِّر عن آمالهم وآلامهم وتجاربهم بأسلوب مباشر واضح مستمد من لغتهم الحياتية وتجاربهم اليومية، ومن الأمثال التي نقلها الميداني التي تبرز هذا الجانب في الأمثال:

- لو ذات سوار لَطمتني (الميداني 3/ 81) يدل المثل بنصه على التمايز الاجتماعي والطبقي، فذات السوار هي الحُرَّة التي كانت تلبس سوارا يميّزها من الإماء.

ولن نتخذ قصة المثل حجة على الرغم من أنها تشير إلى قضية الأسر عندهم وربطها بالفدية، وذلك إن أردنا نقل الصورة التي تمثلها الأمثال من خلال النص لا بالاعتماد على القضية

لما أثير من جدل حول صحة القصص، وكوننا نعالج الأمثال (اللغة) على أنها نتاج القريحة العفوية للمجتمع العربي:

- لا يُحْسِن العبد الكَرّ إلا الحَلْبَ والصَّرَّ (الميداني 209/3) يشير المثل إلى أنَّ العبد هامشي في القبيلة، ليس من مهماته الذود عنها والبلاء في ساح المعارك، فهذا شرف لا يناله سوى الأحرار، وأما العبيد فمهمتهم الاعتناء بالماشية والخدمة حَسْب.
- أبطش من دَوْسَر (الميداني 207/1) يبرز المثل التعسف والجوْر اللذين كانا يخيمان على علاقة الملك بالرعية ، فدوسر هي كتيبة النعمان الشديدة التي يركن إليها، في شدائد الأمور وعظائمها، ناهيك عن أنَّ المثل ينقل انطباعا عن تعظيم المؤسسة العسكرية العربية باعتبارها البعد الرسمي لها، أي خارج نمط العلاقات العضوية التي يقوم على النخوة والحمية.
- أغلى فداءً من حاجِب بن زُرَارَة (الميداني 430/2) يوحي المثل إلى أنَّ حاجب بن زرارة هذا كان من سراة القوم أو من أشرفهم ؛ لذا كانت فدية أسره تختلف عن سواه من العامة .
- أشْغَلُ من ذات النِّحْيَين (الميداني 184/2) يوضح علاقة القِيم بالاقتصاد، فقصته شائعة زمن صدر الإسلام، وكانوا يتندرون بها، وتتجلى دلالة المثل في إيثار المال على الشرف بدافع الحاجة أو الجشع.
- جليس السُّوء كالقَيْن إن لم يحرق ثوبك دخَّنَه (الميداني306/1) يُظهِر المثل صورة لمهن مارسها العرب ، ولا سيما الأعمال اليدوية.
- أعدى من الشَّنْفَرى (الميداني 394/2) أعدى من السُّلَيْك (الميداني 395/2) معالجة ظاهرة الصعلكة التي تُعَدُّ محطة المفارقات في بنية العلاقات الاجتماعية الجاهلية، إذ كان باعثها الأول الاضطهاد والفقر المُدْقِع والنضال في سبيل استعادة الأنا التي أذابتها القبيلة في بوتقة الانتماء العصبي للقيم والعادات.

هكذا يتضح أنَّ الميداني نقل لنا صورة الحياة الفكرية ممثلة بالأدب من خلال الأمثال التي تتسم بصفات أسلوبية وتفرد مضموني، وتُسْهِم في تعزيز دور الأدب العربي وإعلاء شأنه، فهذا الأدب ينقل إلينا ملامح الحياة التي عاشها العرب مبرزا الطبقات الاجتماعية في المجتمع العربي، بالإضافة إلى إبراز الظواهر الخارجة عن نظام القبيلة أو المجتمع كالصعلكة، ودور العبد الهامشي.

ب. الشعر: يحشد الميداني في "مَجْمَعه" جملة من الأمثال التي تَعْرض صورة الشعر العربي الذي يبدو في بعض الأمثال وكأنه من مقدسات العرب، فنجدهم يقولون:

- أسْيَر من شِعْر (الميداني 143/2) إذ يغدو الشعر لسانَ الدهر، والشعراء أمراء الكلام وزعماء الفخار، لكن هذه الصورة سَرْعان ما تهتز وتخفت شمس سطوعها ليتضمن المثل هذه الوظيفة:

آكل لحمي ولا أدَعُه لآكل (الميداني 70/1) لا تتخطّى إضحاك الملوك، وصاحبها أقرب إلى أهل البطالة منه إلى أهل العمل والكَد، مما يحير المرء في هذا التناقض.

ج. الخَطابة: تبسط أمثال الميداني أهمية الخَطابة في المجتمع العربي باعتبارها ملمحاً من ملامح الفكر فيه، على نحو ما نجد في "أَخْطَب من سَحْبَان وائل (الميداني 440/1) فتصوّر الخطيب رجلا يشار إليه بالبنان، ويبدو وكأنَّ العرب كانت تخشى لسان الخطيب وتهابه، مما انتهى ببعضهم لشراء صاحبه.

أما قطعت جَهِيزَة قول كل خطيب (الميداني 474/2) فيكشف دور الخطابة الاجتماعي، إذ ينبري الخطيب يصلح ذات البين.

د. النقد: كان من الملامح الفكرية التي تطرقت له أمثال الميداني، نحو قولهم: قد استَنْوَق الجَمَل (الميداني 478/2) الذي يعود لتعليق نقدي أطلقه طَرَفَة بن العبد حين أنشد المتلمِّس شعراً قي وصف جمل ثم حوّله إلى نعت قائلاً:

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره — بناج عليه الصَيْعَرِيَّة مكدم

فهو نقَدْ قائم على موازنة الألفاظ للمعاني موازنة يلتبس فيها الشكل والمضمون، وفي المثل: الهوى من النّوى (الميداني 499/3) الذي يحتضن مفهوم الرتابة التي تقتل الجمال والعادة التي تفترس الدهشة.

هـ. القصص الخرافي: في كوة الذات القلقة التي تنشد الدعة والطمأنينة على صعيد فردي ، يأتي القصص الخرافي، وكأنه ضرورة اجتماعية في بيئة لا تمتلك من وسائل اللهو والترفيه ما تقتل به سأمها ووحشة لياليها، فكانت أسماء الليل تتخذ من هذه القصص زادها ، ومن أمثالهم :

- أنكد من تالي النَّجم (الميداني 3/ 408) وإذا عدنا لقصة المثل نجدها نموذجا للقصة القصيرة التي تقوم على خِطبة الدَّبَران للثريا (وهما نجمان في السماء) والقصة بأجوائها تعكس طبيعة المجتمع العربي بما فيه من عادات كالوصية، الثأر، ومنطق القوة والرثاء.

- لا أُحِبُ تخديش وَجْه الصاحب (الميداني 3/ 201) تدور قصته حول ثعلب ماكر وقع الأسد في شَرَك وحاول قتله، تُسْفر هذه القصة عن الصراع بين الحاكم والمحكوم في بعدها الاجتماعي وإبراز نمطية العلاقة غير المطمئنة بينهما.

من خلال هذه الأمثال التي أوردها الميداني في مجمعه، تَسْتَعْلِن الحياة الفكرية في المجتمع العربي، إذ للثقافة تأثير كبير في المفردات اللغوية، التي تظهر الحياة ممثلة في جوانبها الفكرية من أدب وشعر ونقد وقصص خرافية.

التربية: يستحضر الميداني في المَجْمَع صور التربية في المجتمع العربي، وتقوم على تعميق القيم الأخلاقية في نفوس أفراد المجتمع، إذ تتبدى التربية في جوانب عديدة، منها:

أ. القيم الأخلاقية: تنتظم هذه القيم مفاهيم متعددة، تَمثَّل بعضها في حقل التربية، منها:

الفروسية:

تَعْمد الأمثال إلى تزيين دور الفارس وتمجيد بطولاته، من هذه الأمثال:

- أفرس من سُمّ الفرسان (الميداني 465/2) وفيه إظهار للفروسية في بني تميم، وأفرس من مُلاعب الأسنة (الميداني 466/2) وفيه إبراز لفروسية قيس، وأفرس من عامر (الميداني 466/2) وفيه تظهر فروسية ربيعة، وأفرس من بِسْطام (الميداني 466/2) وفيه تتجلى فروسية بكر، وأفتك من البرَّاض (الميداني 468/2) وهو رمز عن فرسان بني كنانة، وأفتك من الحارث بن ظالم (الميداني 2 /470) وهو نموذج عن فرسان قُضَاعة، وأفتك من عمرو بن كلثوم (الميداني 471/2) وفيه فروسية تغلب، الشجاع مُوَقَّى (الميداني 161/2) وأحمى من مجير الظُّعْن (الميداني 393/1) وأحمى من مُجير الجراد (الميداني 1 /393) تُجسِّد هذه الأمثال قيمة الفروسية والاحتفاء بالفارس في المجتمع العربي المجبول على حب الفروسية والوَلَع بها، كما أنها محور من محاور التربية الاجتماعية في هذا المجتمع.

الكرم: تَحْفَل الأمثال بالكرم وآثاره، ضاجة بالدلالة عليه، نحو:

أجود من حاتم (الميداني 326/1) وأجود من كعب بن مَامَة (الميداني 327/1) وأجود من هَرم (الميداني 336/1) وحدِّث عن معنٍ ولا حرج (الميداني 368/1) والشَّحَيح أعذرُ من الظالم (الميداني 162/2) وألأمُ من البَرم القرون (الميداني 3 /222) وأقرى من زاد الرّاكب (الميداني 534/2) وأقْرَى من غيث الضَّرِيك (الميداني 534/2).

وهذه المثال تربي في النفوس هذه القيمة الإنسانية، وتحث عليها كما أنها تُنفِّر من ضده: البخل والشُّح.

الشرف: الأمثال الدالة عليه وافرة، والمحافظة على العِرْض كذلك، منها:

ذَكَّرْتَني الطَّعْنَ وكنتُ ناسيا (الميداني 10/2) وفيه إشارة على نبذ المال في سبيل الحرام، وتجوع الحرة ولا تأكل بثدييْها (الميداني 215/1)، لا بُقْيا للحَمَّية بعد الحرائم (الميداني 192/3) وقع بينهم حَرْبُ دَاحِس والغَبْرَاء (الميداني 508/2)، وعلى الرغم من محافظة العربي على عِرْضه والذود عنه، فإن الرقابة لم تكن صادقة بما يقتضي الأمر؛ لغياب الوازع الديني؛ ومن هنا كَثُر الفُحْش والغِش بشكل يثير النفور، ومن أمثلة هذا: خير قليلٌ وفضحت نفسي (الميداني427/1) بمثل جارية فلتزن الزانية(الميداني166/1) وأظن ماءكم هذا ماء عناق (الميداني 308/2) ورويد الغزو يَنْمَرِق (الميداني 25/2) وتنطوي الأمثال أيضاً على صراع القيم والأخلاق مع الحاجة، وخضوع هذه القيم في كثير من الأحيان لسلطان المال والجاه، إذ تجد المرأة قد انصاعت وراء هذا المطلب، نحو: أشغل من ذات النحيين (الميداني 184/2) فتضحِّي بشرفها في سبيل إبقاء نحيي السمن سالمين، مُصِّي مصيصاً (الميداني 234/3) فبعض النساء يتصرفن دون رقيب أو حسيب، حتى إنهن اشتهرن بالزنا على نحو: رب الوسادة وطول السّواد (الميداني 93/2) في هند بنت الخسّ التي اشتهر أمر زناها، ولا يتجاوز عقابها عن بعض اللوم الذي لا يخدش حسا أو يجرح شعوراً.

الأسرة: يُجلّى هذا الجانب من التربية دور الأسرة ممثلة بالأب الذي يأخذ دور الآمر الناهي، وشخصيته تطغى على شخصية الأبناء، ويُفْصح عن تلك الهيمنة في قضية الزواج، فهو يختار لهؤلاء الأبناء الزوجة، وما عليهم إلا الخضوع والتنفيذ، ومن أمثلتهم في هذا قولهم: قد كان ذلك مرة فاليوم لا (الميداني 497/2) في تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله آمنة بنت وهب.

ومن صور التربية الأُسَرية القائمة على الجزم والشدة، وخاصة ما يتعلق بتأهيل الفتاة، وهذا ما يمدنا به المثل: أمْرَ مبكياتك لا أمر مضحكاتك (الميداني 49/1) كما يَظْهر في هذه الأسرة دور الأم باعتبارها نموذجا أعلى لبناتها، قالوا: تنهانا أمُّنا عن الغَيّ وتغدو فيه (الميداني 225/1) وهي المحبة لأولادها: القَرنبي في عين أمِّها حَسَنَة (الميداني 484/2) وبالأرض ولدتك أُمُّك (الميداني 189/1) وهي لا تضحى بأولادها: تأبى له ذلك بنات ألببي (الميداني 234/1).

إن الأسرة هي الركيزة الأولى في التربية، وهي مُمَثَّلة بالأب والأم اللذين يسهران على تربية الأبناء ورعايتهم.

البيئة والطبيعة: ارتبط العربي ببيئته، فهي مسرح حِراكه، ومهوى الأفئدة، لذا راح يعاين هذه البيئة، إنسانها، وحيوانها، ونباتها، ومظاهرها الطبيعية.

وأنبأت أمثال الميداني عن مدى صلة العرب بالبيئة من حولهم والطبيعة، وتمثل ملامح هذه الطبيعة في **الحيوان:**

فهو أنيس البدوي في مكان إقامته، كما أنه رفيقه في سفره، وهو مورد من موارد الرزق. توزَّعت الأمثال في هذا المقام بين حيوانات داجنة (أليفة) وبرية ، وكلها تدور في فلك المراقبة الواعية لنمط عيش الحيوان، وتركيبة بنياته، وتقلبه في حالات الهَرَم والنشاط، ومن أمثالهم المعبِّرة عن هذا :

- إنَّ الجواد عينه فِرَاره (الميداني 12/1) والفرار بالكسر : النظر إلى أسنان الدابة لتعرف قدر سنها، ويروى فراره بالضم.
- هم في مثل حَدَقَة البعير (الميداني 464/3) أي أن حدقة البعير مرآة لصحته.
- وهم في مثل حِوَلاء الناقة (الميداني 464/3) ووقع القوم في سَلَى جَمَل (الميداني 419/3).
- وأمسخ من لحم الحُوار، وأملخ من لحم الحُوار (الميداني 354/3) هذا عن الحيوانات الداجنة، أما عن الحيوانات البرية، فلهم فيها أمثال كثيرة تُخْبِر عن صفات هذه الحيوانات؛ إذ قالوا : أخذَه أَخْذَ الضَّبِّ وَلَده (الميداني 43/1) أي أخذتها بقوة، وأخدع من ضَبّ (الميداني 457/1) وَجَدَ تَمْرَة الغُراب (الميداني 424/3) وأبصر من غراب (الميداني 202/1) أروى من ضَبّ (الميداني 74/2) أبصر من الوَطواط بالليل (الميداني 203/1).

البحر: ومن معالم الطبيعة التي تطلعنا عليها أمثال الميداني البحر ، إذ نجدهم يقولون:

جاور مَلِكا أو بَحْرا (الميداني 302/1) مما يبرز معرفة العرب الساطعة بالبحر، فكانوا في زمن القحط والجفاف يجاورون الملوك لكي يتنعموا بنعيمهم، وإسقاط هذا الجوار نفسه على البحر خير برهان على أن معرفتهم بالبحر تحاكي معرفتهم بالملوك.

وتشمَّرَتْ مع الجاري (الميداني 223/1) تاء التأنيث تعود على السفينة، وفي حدود المثل دلالته التي تفيد معرفة العرب بالبحر.

دَأْمَاء لا يُقْطَع بالأَرْمَاث (الميداني 476/1) واالدأماء: البحر، والرمث: خشبات يُضَمّ بعضها الى بعض ثم تركب في البحر للصيد وغيره.

كما أشارت الى معرفتهم بالحيوانات التي تقطن في البحر، نحو قولهم: آكل من حوت (الميداني 149/1) وأظمأ من حوت (الميداني 316/2).

النجوم: ومن ملامح الطبيعة التي تبسطها أمثال الميداني معرفتهم (العرب) بالنجوم، وذلك في قولهم: أَنْكَدُ من تالي النَّجْم (الميداني 408/3) ويعنون بالنجم مطلقاً الثريا،وتاليه الدبران، وقالوا: أُرِيْها السُّها وتُرِيني القمر (الميداني 31/2) والسُّها: كوكب صغير في نجوم بنت نعش، ومما يدل على أنَّ معرفتهم بالنجوم تخطّت الظاهر منها الى الخفي، قولهم: إنما هو كَبَرْق الخُلَّبْ (الميداني 46/1) وهي السحاب الذي لا غيث فيه، والسحاب الراعده التي تبرق، قالوا: جلاء الجوزاء (الميداني 303/1). وأخطأ نوْءُك (الميداني 437/1) والنَّوْء: النجم الساطع أو يسقط فيمطر، بل ارتبط هطول المطر عندهم ببعض المعتقدات التي يجسدها قولهم: أهْوَن من النُبَاح على السّحاب (الميداني 508/3) إذ اعتبروا نباح الكلب مؤشراً لهطول المطر.

هكذا تمدنا أمثال الميداني بدراسة عن البيئة والطبيعة التي عاش فيها العربي فأثرت في سلوكه، وانعكست ملامح هذا التأثير في تفكيره ومعتقداته.

المعتقدات: أما عن المعتقدات والأفكار التي كانت سائدة في الحياة العربية وآمن بها العرب وتمثيلها في حياتهم، فإنَّ الأمثال تستخْبِر جملة من المعتقدات والأفكار التي سادت في أعطاف المجتمع، نحو:

1- **الموت**: الموت هاجس الذات البشرية منذ بداية تحضرها على وجه هذه البسيطة، وقد رأى الجاهليون أنَّ الحياة هشة سريعة الانكسار، فهي ثوب مستعار، وإحساسهم بالموت كان يبذ كل إحساس، فآمنوا بحتمية الموت؛ مما دفعهم إلى تهذيب النفس وتقويمها، فظهر في بعض الأمثال الميل إلى الزهد ، وهذا ما نلمحه في قولهم: أنا جُذَيْلها المُحَكَّك وعُذَيْقُها المُرَجَّب (الميداني 52/1) أخْنَى عليها الذي أخنَى على لُبَدٍ (الميداني 429/1).

وإذا تتبعنا أمثال الميداني التي تشير إلى إيمان العرب بالموت، فإننا نلْحَظ تعدد أسماء الموت ونعوته، وكل هذه الأسماء والنعوت مؤنثة في لفظها، نحو قولهم:

طرقته أم اللُّهَيم وأم قَشْعَم (الميداني 287/2) لقي هِنْدَ الأَحامِس (الميداني 140/3) نَشِطَتْهُ شَعُوب (الميداني 382/3) وردوا حياض غَنيم (الميداني 434/3).

وفي مَعْرِض الحديث عن الموت، نجد بعض الأمثال عند الميداني تطرقت إلى البعث والنشور، إذ قالوا: أبلغ من قُس (الميداني 195/1) وهو يعرف رأي الحنفاء في موضوع البعث، ويتمثل هذا الإيمان بقولهم : إنّ غداً لناظرهِ قريب (الميداني 121/1) وأصبُّ من المتمنِّية (الميداني 253/2) وهوت أمهِ (الميداني 475/3).

كما تطلعنا أمثال الميداني على ما آمن بها العرب في الجاهلية كالهامة، فقد جاء في المثل: أصمّ الله صداه (الميداني 233/2) وهَامَة اليوم أوغدٍ (الميداني 501/3) أي هو ميت اليوم أو غداً، وذلك أنهم كانوا يعتقدون بأن روح الميت تصبح طائراً هو الهامة.

2- **الدهر**: كان العرب يرجعون كل ما يصيبهم إلى الدهر من حوادث ونوائب، ولعل نظرة في أمثال الميداني تمدّنا بالعديد من الأمثال التي تشبه أن تكون الصدى في هذا الموقف، فهي متشابهة لا تختلف إلا في حدود بعض العبارات والكلمات، ومن الأمثال التي أوردها الميداني في هذا الشأن: إنه لَهِترُ أهتْار (الميداني 44/1) والهِتْر العجب والداهية، وحَلَب الدّهر أشطُرَهُ (الميداني 347/1) وفَرّ الدّهر جَذَعاً (الميداني 443/1) بمعنى أنَّ الدهر لا يَهْرَم، إذا أدبر الدّهرُ عن قومٍ، كَفَى عَدُ وَّهم (الميداني 48/1) وأكل عليه الدّهر وشَرب (الميداني 69/1) وأتى عليهم ذو أتى (الميداني 118/1) نوائب الدّهر، أبقى من الدّهر (الميداني 206/1) أجفى من الدّهر (الميداني 338/1) والدّهر أطْرقُ مُسْتتبّ (478/1) أطول من الدّهر ومن اللوح (305/2) وأعقُّ من ضَبّ (الميداني 396/2) الأقْوَس الأجْتَى من ورائك (الميداني 526/2).

3ــ **القَدَر:** يرتبط القدر بفكرتي الموت والدّهر، وتجسِّد أمثال الميداني فكرة القدر بوصفها فكرة أساسية وهي التسليم المطلق بأحوال القدر، وعجز الإنسان أمام جبروته وقدرته، ومن أمثالهم: أتتك بحائن رِجلاهُ (الميداني 33/1) بمعنى عدم قدرته على الفرار من تحكّم القدر به، وأجرأ من فارس خَصاف (الميداني 324/1) وفيه حث على تسليم الإنسان وقيادته للقدر، وكل ضبّ عنده مرارته (الميداني 6/3) ولا يملك الحائن حَيْنَه (الميداني 177/3) لا يَنْفَع حَذَرٌ من قدر (الميداني 196/3) المرء يَعْجَز لا محالة (الميداني 326/3).

4ــ **الاعتقاد بالجن:** يمكن أن نعدّ أمثال الميداني أحد المصادر التي تمدنا بالأخبار عن الجن في إطار المعتقدات التي آمن بها العرب في حياتهم العربية، ومن الأمثال التي تُظهر هذه الصورة: إن عليك جَرِشاً فَتَعَشَّه (الميداني 18/1) ويعنى بأنهم كانوا يعتقدون بأنواع من الجن تتشكل في حيوان، وحديث خرافة (الميداني 346/1) والحُمَّى أضْرَعَتني لك (الميداني

364/1) ريح حَزَاء فالنّجاء (الميداني 27/2) واسمع من سمِع (الميداني 139/1) يشير إلى أنَّ الجن يكثر في المواضع الخالية، والشر أ خبث ما أوعيت من زاد (الميداني 365/1) وأضل من سِنَان (الميداني 274/2) وكالثور يُضرْبَ لمّا عافت البقر (الميداني 23/3) كالأرْقم إن يُقتل يَنْقِم، وإن يترك يَلْقَم (الميداني 27/2) وأهدى من دُعَيْميص الرَّمل (الميداني 509/3) وهذه الأمثال تظهر علاقة الإنسان بالجن وما ذكر من أن بعض الشعر نُسِب إلى الجن، وتكشف عن بعض المعتقدات التي شاعت بين أفراد المجتمع التي تُعْرِب عن تزاوج الجن والإنس.

5ــ **الكهانة:** وهي أيضا من الأمور القريبة لعالم الجن والأرواح، وتعنى بالأمور الغيبية ومعرفة الأسرار، وقد سجَّل الميداني في "مَجْمَعه" حَشْداً من الأمثال تكشف عن هذا المعتقد الذي ساد حياة الإنسان العربي ، فلجأ لمثل هذه الاعتقادات في محاولة لمعرفة المجهول أو المغيَّب الذي يخفى عليه، ولعل البيئة الصحراوية الممتدة على مرامي الأعين أوحت له هذا المعتقد، ففي المثل:

إلا دَهٍ فلا دهٍ (الميداني 74/1) نجد أنَّ العرب كانوا يمتحنون مصداقية الكهّان الذين يقومون بدور الحكم الفاصل بين الناس بالإضافة لمهمتهم الأساسية وهي التكهن، وقالوا: آبَل من حُنَيْفِ الحَنَاتِمِ (الميداني 148/1) وأطبق المجتمع على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية يستعينون بالكهنة في أمورهم، وذلك أنهم قالوا:جَوِّع كلبك يتبعك (الميداني 294/1) الذي يشير إلى أنَّ بعض الملوك يستعينون بالكهنة لإعانتهم في أمور الحكم، ويستشيرونهم في الأمور التي تعرض لهم، ويقولون: جاء وفي رأسه خُطَّةَ (الميداني 312/1) يُلمح إلى طرق بعض الكهان في استخراج الأسرار، وأحذر من قِرِلَّى (الميداني 405/1) يومىء إلى هند بنت الخُسّ مع إيراد بعض أسجاع لها، ورويد الغزو ينمرق (الميداني 25/2) وهي الكاهنة التي كانت تغزو رأس قبيلتها، وهذا إشراك من المرأة للرجل في هذه الحرفة أو المهنة.

واَعرِفُ ضَرِطي بِهِلاَلٍ (الميداني 364/2) فقد أوتيت الكاهنة علم الغيب الذي أهَّلها لإدراك سر الجنين قبل خلقه.

وكذلك قالوا: على الحَازِي هَبَطْتَ (الميداني 375/2) والحازي الذي ينظر في خِيلان الوجه وفي بعض الأعضاء ويتكهن، وقالوا أيضاً: لا ناقتي في هذا ولا جملي (الميداني 166/3) يظهر توسّل الكهان للغة السجع بقصد التأثير فيمن يأتي إليهم، وفي سياق الكهانة يأتي المثل: يَطْرُق أعمى والبصير جَاهِل(الميداني 536/3) دلالة الطرق أي الضرب بالحصى وهو نوع من الكهانة.

والعيافة ضرب من الكهانة والتنبؤ، فنجد لهذه الظاهرة صدى في مجمع الأمثال للميداني، فقد حفلت أمثاله بأخبار العيافة التي تقوم على ملاحظة حركات الطيور والحيوانات ومراقبة أصواتها، ونلحظ أنَّ بعض الأمثال يعرض لوجود العيافة بشكل عام نحو قولهم: اسْعَ بجدك لابكدك (الميداني 118/2) وأشأم من الأخْيَلِ (الميداني 193/2) عند جُهَينَةِ الخبر اليقين (الميداني 319/2) والعاشية تُهِّيج الآبية (الميداني 329/2) والفِرار بِقِرَاب أكْيَس (الميداني 448/2).

وبعض الأمثال تخصص العيافة بالطيور التي تمتاز بأسرار لا يمكن للإنسان إدراكها، ومثال ذلك: أشأمُ من غراب البين (الميداني 149/2) ذلك أنَّ العرب تتطير من صوت الغراب، تتفاءل بصياحه. ولو تُرِك القط ليلاً لنام (الميداني 82/3) ولا ماءك أبقيتِ، ولا حِرَكِ أنقيتِ (الميداني 161/3) فيمن يشترط في الصهر أن يكون عائفاً.

على هذا النحو ينقل إلينا الميداني في مَجْمَع الأمثال مشهداً ثرًّا للتجليات اللغوية الاجتماعية، برصده للحراك الاجتماعي ممثلاً بالعادات في ذلك المجتمع وتقاليده ومعتقداته الدينية التي مارسها أفراده، فهي مرآة راصدة لما جال في أحناء المجتمع. واستكناه لبواطنه الغائرة.

نَخْلُص من هذه الدراسة إلى زُمرة من الأنظار ترسّمتها الدراسة:

- الإنسان مدني بالطبع، لذا بذل وُكْدَه في البحث عن وسيلة تمكِّنه من تحقيق رغبته في الاتصال والاجتماع، فوجد في اللغة هادياً ومنيراً لمسيرة حياته وعلاقاته بأفراد المجتمع.
- اللغة مرآة صادقة لسلوك الأفراد في إطار المجتمع المعين، تحاكي حاجات الأفراد في المجتمع الذي نشأت وتخلّقت في أحضانه.
- إن الصلة الناظمة بين المجتمع واللغة لا فكاك لها ــ لتحري التأثير المتبادل بينها.
- اللغة ظاهرة اجتماعية، تتوافر فيها خصائص الظواهر الاجتماعية؛ لذا فإنها تؤدي وظيفة اجتماعية تتجاوز من خلالها وظيفة التفكير المجرد، مما دفع بعضهم إلى تسمية وظيفة اللغة الاجتماعية بالتواصل الودي بين الناس.
- اللغة في إطار وظيفتها الاجتماعية، تقوم بدور المميِّز الطبقي بين طبقات المجتمع المختلفة، وهي الوظيفة التي أدركها القدماء أمثال الجاحظ وغيره.
- يحظى كتاب مَجْمَع الأمثال بأهمية، جعلت العلماء يؤكدون هذه الأهمية، ويرون أنه من الكتب الجليلة التي لم يُعْمَل مثلها في بابه، لذا آنسنا أن نتخذه نموذجاً للمخيال الشعبي للحقب التي أرّخ لها الميداني.

- كشفت الأمثال في مَجْمَع الميداني عن الطبائع المستكنة في المجتمع العربي، وبسطت بعض طرائق التفكير وملامح الحياة الفكرية ممثلة بالأدب والشعر والقصص الخرافي والنقد.
- كما ألمعت هذه الأمثال إلى المشهد اللغوي الاجتماعي في المجتمع العربي. ولعل هذه الخلاصة تُقدح في نفوس الباحثين الحاجة إلى رَجْع النظر في تراثنا اللغوي، لمدارسته والتنقيب في ثناياه عن رؤى كاشفة للثقافة والمجتمع في الحياة العربية ، وتخطِّي الاحتفاء الساذج بالتراث، إلى العمل الجاد الذي ينتهج شرعة علمية واعية.

المراجع:

1. أبو زيد ،محمود ، اللغة في الثقافة والمجتمع،ط1،دار الكتاب،مصر،(د .ت)
2. أبو علي، محمد توفيق ، الأمثال العربية والعصر الجاهلي،ط1،دار النفائس،بيروت،1988م
3. أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ،ط3 ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1976م.
4. أولمان ،استيفن، دور الكلمة في اللغة، ط1، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1962م.
5. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، ط1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر ، بيروت، 1987م.
6. الجاحظ، الحيوان، ط3، تحقيق عبد السلام هارون، المجمع العلمي الإسلامي، بيروت، 1969م.
7. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
8. الحنبلي (ابن العماد)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1 ،دار الفكر ، بيروت، 1979.
9. ابن خلكان (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط2، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة/ بيروت، 1968م.
10. خرما نايف، أضواء على الدراسات اللغوية،ط1 ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978م.
11. عابدين ،عبد المجيد، الأمثال في النثر العربي القديم، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989
12. شريدة، صالح مهدي، "العلاقة بين اللغة والمجتمع"، مجلة المجمع العلمي العراقي، ص310 -331، مجلد25، 1974م.

13. عفيفي، عبد الفتاح، علم الاجتماع اللغوي، ط1، دار الفكر العربي، مصر،1987م.
14. غارمادي، جولييت، اللسانة الاجتماعية، ترجمة خليل أحمد خليل، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1990
15. الفارابي (إسحق بن إبراهيم)، ديوان الأدب، تحقيق أحمد مختار عمر،ط1،مطبوعات مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1979
16. قطامش، عبد المجيد:الأمثال العربية -دراسة تاريخية تحليلية -،ط1، دار الفكر،دمشق،1988
17. القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف): إنباه الرواة على أنباه النحاة،ط1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية/بيروت، 1986م.
18. ابن المقفع (عبد الله)، الأدب الصغير"آثار ابن المقفع"، ط1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، 1986م.
19. لوكمان، توماس ، علم اجتماع اللغة،ترجمة:أبو بكر باقادر، ط1، النادي الأدبي للثقافة، جدة، 1987 .
20. الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد): مَجْمَع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار الجيل، بيروت، 1987.
21. نهر، هادي، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ط1، دار الأمل، إربد/الأردن ،1998م.
22. Encyclopaedia of Islam.Vol.3.p408
23. 22.Malinowski,B,The problem of meaning in primitive language “supplement in C.K.Ogden and A.Richards , Meaning of Meaning,3rd end,Routledge&Kegan Paul.London,1930,p307.
24. 23.Wardhaugh (Ronald),An Introduction to Sociolinuistcs,Blach Well,Oxford,1992.